

العلاقات الأخوية المسيحية - الإسلامية في المشرق العربي عامة وفي فلسطين خاصة هل يمكن أن تشكل نموذجاً للغرب؟

الطهران عطا الله منا

رئيس أساقفة سبسطية للروم الأرثوذكس،
بطريركية الروم الأرثوذكس بالقدس، فلسطين

الملخص

إن منطقة الشرق الأوسط هي مهد المسيحية، والمسيحيون في الشرق تاريخ حي ينبض بالحياة، وقد شهد المشرق العربي منذ بداية ظهور الإسلام أجواء من التأخي والودية بين الإسلام والمسيحية دون أي تعصب ديني ومذهبي، وساد التأخي والعيش المشترك المجتمع العربي بكل مكوناته الدينية: المسيحية والإسلامية.

وتبقى الحقيقة المهمة، وهي أن المسيحيين العرب ليسوا أغراباً بأي شكل من الأشكال عن المجتمع الإسلامي؛ فقد عملوا مع المسلمين جنباً، إلى جنب منذ أربعة عشر قرناً دون انقطاع حتى يومنا هذا، في بناء صرح الحضارة العربية ومدنيتها، ونبغ بينهم كتّاب وأدباء وأطباء ومهندسون وعلماء في مختلف أنواع العلوم، ومترجمون نقلوا مختلف الحضارات إلى العربية ثم إلى العالم، وكثير منهم نالوا مناصب وزارية وغيرها في البلاد الإسلامية.

وكل من المسيحي والمسلم في الشرق الأوسط يتجه نحو تحقيق العيش الواحد في حياة المواطنين المتساوين في أصل المواطنة، وفيما يترتب عليها من حقوق وواجبات، ولا يفرق بينهم في هذه الحياة أن أحدهما مسيحي والثاني مسلم، وإنما يجمعهما شرف الانتماء إلى وطن بنوه معاً، ويحمونه بدمائهم وأموالهم معاً، ويدفعون كل كيد يراد به بوقوفهم صفاً واحداً؛ فالدين ليس العامل الوحيد فحسب الذي يحكم علاقاتهم، بل هناك روابط أخرى كالنسب والدم والعرق والجنس والوطن واللغة، وغيرها من الروابط التي تشكل الهوية العربية والمواطنة الصالحة في المجتمع، ولذلك فإن اختلاف الدين لم يفصل المسيحيين والمسلمين العرب بعضهم عن بعض، ولذلك تعايشوا وتعاملوا، كأبناء أرض واحدة.

وأي ظروف قاسية أو نزاعات مرت أو تمر بالمسيحيين في هذه المنطقة، كانت دائماً من فعل الغريب وتأثير العنصر الأجنبي، والمسيحيون العرب - ليس لديهم كالعربيين حُمى فوبيا الإسلام - أحرار من العقدة الصليبية؛ لأنهم - ببساطة - لم يكونوا خارج هذه الحملات فحسب، بل استهدفوا فيها أيضاً، وأهدرت دماؤهم فيها كما أهدرت دماء المسلمين.

ووقف المسيحيون موقفاً صارماً تجاه المحتلين الغربيين - تحت ستار حماية الأقليات - ونذكر أن كثيراً من المفكرين وكبار رجال السياسة المسيحيين وقفوا على المنابر ليرفضوا حماية هؤلاء المحتلين للأقليات؛ فالتدخل الأجنبي في شؤون المسيحيين والمسلمين وعلاقاتهم بعضهم ببعض أمر مرفوض من الفريقين جميعاً، وهو يعبر عن أصالتهم المشرقية وعن التزامهم بقضايا أمتهم وفي صناعة مصير دولهم الوطنية ومستقبلها. والمشكلة التي يواجهها مسيحيو الشرق تتمثل في هجرتهم من المنطقة. وهذه الهجرة ليست مصيبة على المسيحيين وحدهم ولكنها مصيبة على المسلمين أيضاً؛ فنتائج الهجرة وانعكاساتها، سلبية ليس على المسيحيين فقط، وإنما على شخصية العالم العربي وهويته وعلى مستقبله ومصيره، وتؤدي إلى تفسخ المجتمعات العربية وإلى تأكلها، ومن ثم إلى خسارة عناصر ومقومات جوهرية في البنية المجتمعية لبلدان الشرق العربي.

وفلسطين تعد نموذجاً حياً للتسامح والتعايش الديني المعاصر، فالمسلمون والمسيحيون فيها يتجاورون في السكن في أحياء مشتركة، ويتزاورون في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية، ويعايد بعضهم بعضاً، ويشارك أحدهم الآخر، أفراداً وجماعات في العمل والأفراح والأفراح، ويشكل المسلمون والمسيحيون في فلسطين شعباً واحداً؛ فهم يشتركون في البيئة الثقافية والحضارية والسياسية نفسها، ولهم تاريخ مشترك، ولهم تطلعات مشتركة ومستقبل واحد، وشكل المسيحيون الفلسطينيون في فلسطين التاريخية ركيزة مهمة في التاريخ الفلسطيني المعاصر والحركة الوطنية منذ بداية القرن الماضي؛ فقد برز المسيحيون الفلسطينيون في قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية بقوة، وكان لهم الحضور الكبير في النضال الوطني منذ سنة ١٩١٧ حتى اليوم، وحاول الإسرائيليون بشكل مستمر ومتكرر اللعب على وتر العلاقات الإسلامية المسيحية في فلسطين، إلا أن المسيحيين والمسلمين على السواء واجهوا دوماً هذه المؤامرات والخطة التفريقية، وذاق الآلاف منهم مرارة الاعتقال وقسوة السجن، واحتجزوا مع المعتقلين المسلمين في ظروف قاسية، وتعرضوا لما تعرض له باقي المعتقلين الفلسطينيين من معاملة لا إنسانية، ولصنوف مختلفة من التعذيب والحرمان، وكانوا شركاء في الألم والصمود والنضال خلف القضبان.

ولقد تبنت السلطة الوطنية الفلسطينية سياسة وطنية تقوم على التسامح الديني، تتضح معالمها من خلال النظر في مناهج التدريس ووسائل الإعلام المختلفة والوظائف العامة والخاصة وتقديم الخدمات المختلفة، وفي المساواة أمام القانون، واتخاذ إجراءات تكرس تمثيلاً مسيحياً في مؤسسات السلطة، والتشجيع على فتح العديد من المؤسسات الدينية والاجتماعية ذات الطابع الحوارية في مناطقها.

وخلاصة القول إن المشرق العربي حفل على مدى عدة قرون بأروع مظاهر الحياة الأخوية المسيحية - الإسلامية التي تقوم على المحبة والتسامح والتي لا يزال الناس يتطلعون إليها اليوم في معظم بقاع الأرض، والتي يمكن أن توجه كرسالة إلى العالم، أو كأنموذج رائع للعلاقات البشرية التي تقوم على المحبة والتعاون والتفاهم، ليس بينهم وبين المسلمين فحسب، بل بين الشرق والغرب أيضاً.

مقدمة

المسيحية ليست نبتة غريبة في هذا الشرق، وإنما هي نبتة أصلانية فيه ومن أهم مكوناته الروحانية. وللسيد المسيح جغرافيا وللمسيحية جغرافيا ولهما تاريخ، ولا يمكن فصل هذا التاريخ وهذه الجغرافيا عن الشرق وعن فلسطين خصوصاً وعن بلاد الشام عموماً. وفي الأناجيل الأربعة نقرأ عن ناس هذا الشرق الذين التقاهم المسيح، وكذلك نقرأ أسماء قرى ومدن فلسطين.⁽¹⁾

وقد شهد المشرق العربي منذ بداية ظهور الإسلام أجواء من التآخي والودية بين الإسلام والمسيحية دون أي تعصب ديني ومذهبي، وساد التآخي والعيش المشترك المجتمع العربي بكل مكوناته الدينية: المسيحية والإسلامية. وكان الانتشار والتوسع الإسلامي في الشرق العربي توسعاً عادياً لم يُقابل بأيّ عدوانية من قبل أبناء هذه المناطق من السكان الأصليين المسيحيين.

فالمسيحيون الشرقيون يؤمنون برسالة المسيح التي تقوم على المحبة والسلام وحب الخير للناس جميعاً حتى الأعداء منهم، والمسلمون يحبون السلم والسلام؛ ولذلك هم يتعايشون مع سكان المعمورة بتناغم وألفة وتعاون وبر، ويحرصون على تعزيز العلاقات الإنسانية بين بني البشر، كيف لا والدين الإسلامي قرر منذ البداية ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة: 256)، وأكد ضرورة المساواة في التعامل مع غير المسلمين، فلهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم من واجبات، وكفل لغير المسلمين الحرية الدينية وممارسة الشعائر الدينية، ومنع هدم الكنائس والأديرة وكسر الصليب تبعاً لتوجيه الرسول -عليه السلام- بتركهم وما يدينون.⁽²⁾

إن اختلاف الدين لم يفصل المسيحيين والمسلمين العرب بعضهم عن بعض ولذلك تعايشوا وتعاملوا كأرض واحدة، وأضححت العروبة نسيجاً يلف الجميع ويعزز الحس المشترك بينهم. وعليه، فقد جمع بين المسيحيين والمسلمين منذ البداية عوامل جامعة وقواسم مشتركة ومشاعر نبيلة واحدة تتلخص في الإيمان بالله الواحد واليوم الآخر، والإيمان بالقيم الروحية، والشعور الواحد بالانتماء إلى الأرض والعروبة.

والعلاقات المسيحية - الإسلامية عبر التاريخ، يمكن أن توجه كرسالة إلى العالم، أو كأنموذج رائع للعلاقات البشرية التي تقوم على المحبة والتعاون في المستوى العالي المطلوب، والتي تؤدي إلى خلق مناخ وطني في كل المراحل خاصة الصعبة منها، ولم تقم هذه العلاقات على الظلم والاحتلال والاضطهاد، أو الإقصاء والتمييز والاستعلاء والإبادة، كما حصل في كثير من بلدان العالم.

الفصل الأول

العلاقات الإسلامية - المسيحية في المشرق العربي عبر التاريخ

1-1 - مسيحيو الشرق

إن منطقة الشرق الأوسط هي مهد المسيحية كما هو معلوم، والمسيحيون في الشرق تاريخ حي ينبض بالحياة، وكما كان لهم تاريخهم في هذه المنطقة من العالم، فإن لهم حاضرهم الباهر ومستقبلهم الواعد فيها.

مسيحيو الشرق الأوسط هم جوهره الشرق الثمينة، وهم الأتباع الأوائل ليسوع المسيح الذي يشير إليه القرآن الكريم باسم عيسى بن مريم، أو ابن العذراء مريم التي يعتبرها القرآن الكريم أشرف وأطهر امرأة في تاريخ البشرية.

وفي فلسطين من بلاد الشام تأسست الكنيسة الأولى والأسقفية الأولى في القدس، وهنا أيضاً قامت العاصمة الأولى للمسيحية، ألا وهي أنطاكية سوريا، وفي البلاد السورية جرى حفظ الأناجيل وتدوينها. وعليه، فقد كان المناخ الثقافي الذي تنفست ونمت فيه المسيحية مناخاً شرقياً في بلاد الشام ومصر والعراق، فلا أحد ينكر على هذا الشرق أصلاً وثقافته ولا كونه مهدياً للمسيحية وللثقافات القديمة.⁽³⁾

والمسيحية كانت قبل الإسلام في هذه المنطقة من العالم، وبحسب التاريخ، فإن أغلب العرب في الجزيرة العربية كانوا وثنيين قبل المسيحية، لكن بعد مجيء المسيح تحول كثير منهم إلى الديانة المسيحية ولا سيما الساكنين في الجزيرة والشام. فالمسيحيون ليسوا طارئين وليسوا مهاجرين إلى الشرق، فنحن لا نتحدث عن المسيحيين في الشرق إنما نتحدث عن مسيحيي الشرق. ومن ثم نحن نتحدث عن مواطنين مسيحيين في الدول المشرقية العربية.

وقد بلغ عدد المسيحيين العرب والناطقين بالعربية بين 22 مليوناً و33 مليون نسمة، ويعيش نحو 15 - 20 مليون نسمة في منطقة الشرق الأوسط.⁽⁴⁾ وأكبر عدد للمسيحيين العرب موجود في مصر وأكبرهم كنسبة لعدد السكان موجود في لبنان، ولهم تأثير كبير على الحياة السياسيّة والاقتصاديّة، وتمتد كنائسهم من أقصى الشمال اللبناني إلى أقصى جنوبه، كما يوجد عدد كبير من المسيحيين في سوريا وفلسطين والأردن، بالإضافة إلى عدد لا يستهان به

في العراق. كما تضم بعض البلدان المجاورة مثل تركيا وإيران تجمعات صغيرة من المسيحيين، ويوجد أكثر من مليوني مسيحي في جنوب السودان، لكن لا يحسب هؤلاء ضمن سكان الشرق الأوسط. ويوجد أيضاً في بعض دول الخليج العربي مثل الكويت والبحرين أقليات مسيحية من السكان المحليين، كما يوجد في العالم العربي عموماً ودول الخليج العربية خاصةً جاليات مسيحية كبيرة وفدت للعمل، وكذلك الأمر في دول المغرب العربي في شمال إفريقيا، حيث توجد تجمعات صغيرة من المسيحيين، غالبيتهم أجنب وأوروبيون.⁽⁵⁾

ولا ينفي قلة تعداد المسيحيين العرب في الشرق في التاريخ الحديث الحقائق التاريخية القديمة ولا كون المسيحية مركباً روحانياً وثقافياً أصيلاً في هذا الشرق، بغض النظر عن الانتماءات الدينية لأبنائه اليوم، ولا يحق تاريخياً ولا علمياً ولا ثقافياً لأحد أن يصور المسيحية وكأنها دين غريب عن البيئة الشرقية والعربية؛ فأحفاد المسيح الفلسطيني الشرقي هنا باقون، والكنيسة كنيستهم والوطن وطنهم، سوية مع شعبهم العربي على اختلاف دياناته وطوائفه.⁽⁶⁾

ولقد اشترك المسيحيون العرب في تاريخ المجتمع العربي وأسهموا في حضارته ومدنيته منذ أربعة عشر قرناً دون انقطاع حتى يومنا هذا. وكان إسهامهم بارزاً عبر التاريخ، وحائزاً ثقة إخوتهم المسلمين الذين كثيراً ما كلفوهم التكلم باسم الجميع في التعامل مع الخارج.

1-2 - المسيحيون في ظل الدولة الإسلامية

إن وجود المسيحية في هذه المنطقة هو وجود تاريخي سابق للدعوة الإسلامية؛ لأن كل الجماعات التي كانت قاطنة في سوريا والعراق قبل الفتح العربي كانت مسيحية برمتها. ومع أن كثيراً من المسيحيين كانوا قد اعتنقوا الإسلام مع الفتح العربي، فإن سكان بلاد الشام لم يدخلوا الإسلام في القرن الأول الهجري بشكل كثيف، بل إن المسيحيين فيه بقوا الأكثرية الساحقة في بلاد الشام حتى نهاية حروب الفرنجة، فقد ترك المسلمون العرب الناس على مذاهبهم. غير أن المسيحية أخذت تتعرب شيئاً فشيئاً على المستوى اللفظي منذ القرن الثامن على يد تلامذة يوحنا الدمشقي، وطقوسياً تعربت المسيحية في القرن الحادي عشر.

ومنذ ظهور الدولة الإسلامية في التاريخ، أقرت بأن من حق الشعوب الخاضعة لسلطانها أن تحافظ على معتقداتها وطرز حياتها وتقاليدها، وقد تفاعل المسلمون مع شعوب

هذه المنطقة بثقة ومودة، كما تفاعلت هي معه بطمأنينة وثقة. وانضمت قبائل عربية مسيحية كثيرة إلى الفاتحين المسلمين في مواجهة الروم، مع أنهم كانوا على دينهم، مثل (بني تغلب، والغساسنة في سورية، وبني شيبان في العراق بقيادة المثنى بن حارثة الشيباني). كما أن المسيحيين من السريان والأرمن والأقباط والنساطرة فتحوا لهم أبواب معظم مدنهم سلماً. ثم تفاعلوا معهم فيما تفاعلوا ضمن إطار الدولة العربية الإسلامية، إذ وقفوا بصلافة وقوة إلى جانب إخوانهم المسلمين ضد الغزاة والطامعين من الفرس والرومان، حيث أدركوا من الوهلة الأولى أنهم يؤلفون مع إخوانهم المسلمين شعباً واحداً تضمهم وتحتضنهم أرض واحدة وأنهم ينتمون إلى أمة واحدة، ومن ثم فهم معهم شركة في الحياة والمصير الواحد.⁽⁷⁾

ويؤكد المؤرخون أن المسلمين عندما دخلوا مصر وبلاد الشام، كان للمسيحيين فيها كنائس وأديرة، فأقروهم المسلمون عليها - كما أقر النبي (عليه السلام) من قبل اليهود على خير عند فتحها-⁽⁸⁾ وكتب عمرو بن العاص فاتح مصر عهداً يرتبط بحماية كنائسهم، ولعن كل من يجرؤ من المسلمين، على إخراجهم منها.⁽⁹⁾ وفي الواقع فإن عمرو بن العاص بفتحه مصر يكون قد حررها من الرومان الذين هدموا كنائسها وأبادوا شعبها، فحرر عمرو الكنائس المصرية وأديرتها من الاغتصاب الروماني وردها على أهلها ليتعبدوا فيها بعد أن كانت المسيحية في مصر دعوة سرية مضطهدة وممنوعة،⁽¹⁰⁾ وقد اعتبر عدد من المؤرخين المسيحيين المصريين من رجال الكهنوت الأرثوذكسي - كالمؤرخ يوحنا النيقوسي - الفتح الإسلامي لمصر بأنه «إنقاذ إلهي للمسيحية»؛ حيث دخل الأنبا بنيامين بطريك المصريين مدينة الإسكندرية بعد هربه من الروم ثلاثة عشر عاماً، وقال في أول خطبة له بعد عودته: «لقد وجدت في الإسكندرية زمن النجاة والطمأنينة اللذين كنت أنشدهما بعد الاضطهادات والمظالم التي قام بتمثيلها الظلمة المارقون».⁽¹¹⁾

ولعل من أكثر النماذج الحية وضوحاً عن تفاعل المسيحيين منذ البدء مع المسلمين ضمن إطار الدولة العربية الإسلامية هو: منصور بن سرجون وابنه سرجون وحفيده الصغير الذي سمي يوحنا الدمشقي. إذ شغل هؤلاء الثلاثة مراكز مهمة في خزينة الدولة الأموية، بالإضافة إلى غيرهم من المسيحيين الذين استخدمتهم الدولة الأموية في جميع مستويات الإدارة لثقافتهم المتميزة.⁽¹²⁾ وكان الطبيب الخاص للخليفة المنصور مسيحياً يدعى جورجيس بن جبرائيل، ومن ثم تلميذه إبراهيم،⁽¹³⁾ وكذلك دأب كثير من بني

العباس على اتخاذ أطباء وصيادلة من المسيحيين كالمهدي الذي اتخذ موسى بن إسرائيل الكوفي طبيباً، والرشيد الذي كان يعالجه ماسويه بن يوحنا الصيدلاني.⁽¹⁴⁾ وكذلك سجل التاريخ الإسلامي أسماء كثير من المسيحيين واليهود ممن نالوا مناصب وزارية وغيرها في البلاد الإسلامية، حتى قيل: إن أغلب وزراء الفاطميين في مصر كانوا من المسيحيين.⁽¹⁵⁾

وفي عهود الدولة العربية الإسلامية المتتابعة عمل المسيحيون والمسلمون معاً في بناء صرح الحضارة العربية، ونبغ بينهم كتّاب وأدباء وأطباء ومهندسون وعلماء في مختلف أنواع العلوم، و مترجمون نقلوا حضارة اليونان والفرس إلى العربية ثم إلى العالم.

لقد عاش المسيحيون والمسلمون في هذه المنطقة بعضهم بجوار بعض بسلام ووثام وألفة واحترام. وقد ترك لنا التاريخ وأبرزت لنا الوثائق المناقشات المذهبية الأولى التي جعلت هاتين الديانتين متحاورتين في دمشق في ظل الخلفاء الأمويين دون حرج. فكان الشاعر الأخطل (العربي المسيحي) وغيره، يدخل على الخليفة والصليب على صدره مفتخراً به، ومعتزاً بانتسابه إلى المسيحية، ولم يخلق هذا لدى العرب المسلمين أي شعور بالضيق، فقد كانت قبائل عربية واسعة تدين بالمسيحية، أمثال بني تغلب وطبيء وبكر وبني شيبان وغيرهم، حيث ساهمت هذه جميعها مع العرب المسلمين في الفتح العربي في سورية والعراق وغيرها من المناطق.⁽¹⁶⁾

وقد يقول قائل: إذا كانت هذه الصورة المشرقة والرائعة هي التي سادت العلاقات المسيحية - الإسلامية عبر العصور، فكيف بكتابات بعض علماء المسلمين المتأخرة التي تفرض التمييز بين المسلمين والمسيحيين في المجتمع الإسلامي في اللباس والتقاليد، وتفرض عليهم مخالفة المسلمين في كثير من الممارسات الحياتية، وتحرمهم من بعض الحقوق الإنسانية؟

يجاب عن ذلك بأن التاريخ الإسلامي يقدم صورتين للتعامل مع أهل الكتاب: أولاً ما ظهرت في صدر الإسلام على عهد النبي محمد - عليه السلام - والخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين من بعده، واستمرت على مدى عشرة قرون، وكانت صورة رائعة تقدم أ نموذجاً يقتدى به في التعامل مع المخالف في العقيدة والدين. والصورة الثانية ظهرت في كتابة بعض المتأخرين من المسلمين؛ حيث تجد في ثنايا كتبهم صوراً وأساليب للتعامل

مع أهل الكتاب تختلف كثيراً عن الصورة والأساليب التي كانت في صدر الإسلام، وهذه الصورة الأخيرة - للأسف - وضعت المخالفين للمسلمين في الدين في مركز اجتماعي خاص، فأشعرتهم بالفارق بينهم وبين إخوانهم المسلمين من أبناء وطنهم وجنسهم، كمنعهم من التشبه بالمسلمين في لباسهم وزيههم، أو حتى التسمية بأسمائهم أو التكني بكنائهم، ومنعوا كذلك من ركوب الخيل وتقلد السلاح لتمييزهم عن المسلمين، وغير ذلك من الأمور والأحكام التي أجبروا عليها، ولا تمت إلى الدين الإسلامي ولا إلى تعاليم رسول الإسلام ولا سيرته ولا سيرة الخلفاء المهديين من بعده بصلة. وهذه الصور غير المريحة تجدها في كتابات بعض المسلمين في القرن العاشر الهجري وما تلاه، وهي ترتبط بالظروف السياسية والحملات والحروب التي كانت تشن على المسلمين وقتذاك، وكانت تلك الفترة صفحة سوداء في تاريخ الإنسانية ملئت بفواجع تدمي القلوب، وأهوال تفتت الأكباد، وكل ذلك كان له انعكاسات بطبيعة الحال على العلاقات الإنسانية بشكل عام وعلى العلاقات الإسلامية المسيحية وتصوراتهما بشكل خاص، ولكن سرعان ما زالت هذه الصورة والحالة الضبابية للعلاقات الإسلامية المسيحية في الشرق بعد انتهاء هذه الفترة، ورجعت الأمور إلى سابق عهدها من علاقات أخوية ودية.⁽¹⁷⁾

وقد حفل المشرق العربي على مدى عدة قرون بأروع مظاهر الحياة الأخوية التي تقوم على المحبة والتسامح التي ما يزال الناس يتطلعون إليها اليوم في معظم بقاع الأرض، حتى إن المؤرخ ديورانت يقول: «لقد كان أهل الذمة المسيحيون والزرادشتيون واليهود والصابئون يتمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيراً في البلاد المسيحية هذه الأيام؛ فقد كانوا أحراراً في ممارسة شعائر دينهم واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم».⁽¹⁸⁾ ولقد احترم المسلمون المسيحيين، ولم يفرضوا عليهم شريعتهم، بل تركوا لهم أمر تدبير أمورهم وفق شرائعهم الدينية، وأعطيت لرتاستهم الروحية الكنسية سلطات إدارة شؤونهم، فعاش الجميع معاً متضامنين في السراء والضراء.⁽¹⁹⁾

1-3 - دور كل من المسيحية والإسلام في تعزيز العلاقات المسيحية - الإسلامية:

إن الاتصال بين المسيحية والإسلام ليس أمراً حديث العهد، بل يعود إلى نشأة الإسلام ذاته، وذلك أن محمداً - عليه السلام - بقي على اتصال بالمسيحيين والتحاور معهم

في جميع مراحل دعوته إلى الدين الجديد.⁽²⁰⁾

والكتاب المقدس والكنيسة يحثان المسيحيين على المحبة والسلام والتعايش الأخوي مع مواطنيهم، وعلمتهم أن يعطوا ما لله وما لقيصر لقيصر. وبذلك منحتهم حرية الخيار السياسي باعتبارهم مواطنين يمكنهم أن يباشروا نشاطهم السياسي بما يتفق مع مصلحة وطنهم، وقد أكد المجمع الفاتيكاني الثاني في بيانه التاريخي حول علاقة الكنيسة بالأديان غير المسيحية أن الكنيسة تنظر بتقدير واحترام إلى المسلمين الذين يعبدون الله الواحد الحي القيوم الرحيم القادر على كل شيء، ويجلون يسوع نبياً، وإن لم يعترفوا به إلهاً، كما يكرمون أمه العذراء مريم.⁽²¹⁾

إن المسيحية ببعض رؤاها ومعتقداتها موجودة في آيات واضحة في القرآن الكريم، وقرر القرآن منذ البداية أن للمسيحيين مكانة خاصة لدى المسلمين فهم كما قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (المائدة: 82)، وهذا دليل واضح على أن الإسلام منذ ولادته فتح باباً للحوار مع المسيحيين، وبخاصة مع من يمثلهم من القسيسين والرهبان، أي رجال الدين المسيحيين.

وقد ورد ذكر المسيحيين في القرآن بشكل صريح واضح في 23 سورة منه، وفي 127 آية بشكل مباشر، ويجاوز العدد 200 آية إذا احتسبنا ذكرهم بشكل غير مباشر.⁽²²⁾ كما أن القرآن الكريم تطرق إلى عقائد المسيحيين، وإلى الأنبياء الذين سبقوا السيد المسيح، وتحدث القرآن أيضاً عن مكانة السيدة العذراء، وعن ميلاد السيد المسيح، والقرآن الكريم والتفسير الإسلامي أذخلا الرؤية المشتركة في بعض العقائد عند المسيحيين والمسلمين في الباب الصحيح.

«ويقيم الإسلام العلاقة بين أبنائه المسلمين وغير المسلمين على أسس وطيدة من التسامح والعدالة والبر والرحمة...، وقد أوجب الإسلام على المسلمين حماية غير المسلمين بين ظهرائهم من أي اعتداء خارجي، ومن كل ظلم أو عدوان داخلي». ⁽²³⁾ كما أن الحكم الإسلامي لا يرغم المسيحيين على أمر يخالف دينهم، والمسيحيون مخيرون في تنظيم شؤون علاقاتهم الأسرية بين الاحتكام إلى الإسلام أو إلى دينهم.⁽²⁴⁾

ومجمل القول إن نظرة الإسلام من خلال القرآن الكريم إلى المسيحية واضح، فهي مبنية على عدة أسس وقواعد، منها: ﴿وَاللَّهُنَّ وَاللَّهُكُمُ وَجِدٌ﴾ (العنكبوت: 46). ﴿وَلَا تُجَدِّلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (العنكبوت: 46). ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة: 255).⁽²⁵⁾

وخلاصة القول إن العيش المشترك بين المسيحيين والمسلمين في الشرق الأوسط ينطلق من منطلق ديني مسيحي يقوم على المحبة والأخوة، وآخر قرآني وإسلامي يقوم على عدة نصوص قرآنية وأحاديث نبوية، وكان النبي (صلى الله عليه وسلم) يتعامل مع أهل الكتاب بطريقة تؤكد الاعتراف بالدين المسيحي؛ حيث أوجب القرآن على المسلمين الإيمان بالأنبياء السابقين وكتبهم، كما أن سيرة الخلفاء الراشدين تؤكد هذا المعنى، وقد صلى نصارى نجران البالغ عددهم ستين شخصاً في مسجد النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - متوجهين إلى غير قبلته.⁽²⁶⁾ والإسلام يقبل بواقع التعدد الديني والثقافي، لذلك لم يحاول المسلمون قط إكراه أحد على اعتناق الإسلام.⁽²⁷⁾

1-4 - دور المسيحية في الحضارة العربية

قام العرب ومسيحيو الشرق الأوسط بترجمة الفلسفة اليونانية والأعمال الدينية إلى اللغة العربية؛ مما أحدث نهضة في الدول الإسلامية في مجالات العلوم والرياضيات والفلك والفنون، في وقت كانت لا تزال أوروبا غارقة في ما يعرف باسم «العصور المظلمة».

في المقابل، وبعد مئات السنين، قام المسيحيون في الدول العربية بترجمة أعمال المسلمين العلمية في مجالات العلوم والرياضيات وعلم الفلك والطب والعلوم الإنسانية، وذلك من اللغة العربية إلى اللغتين اللاتينية واليونانية؛ الأمر الذي أسهم في انطلاق النهضة الأوروبية وتحول القارة ككل إلى قوة عالمية رائدة. وهذه الثروة من المعرفة لم تكن لتوجد لولا تلك العلاقة الإسلامية المسيحية المتميزة.

وقد كان للمسيحيين العرب دور رائد في إنشاء الصحافة العربية، عندما وفد العديد من الأدباء والعلماء المسيحيين ومعظمهم من لبنان إلى مصر فقاموا بتأسيس الصحف والدوريات العلمية والأدبية ودور النشر هناك. وأسهم المسيحيون العرب منذ ذلك الوقت في العالم العربي في مجالات التربية والطب وغيرها من المهن العلمية، وكانوا في جميع إنجازاتهم المثال الأعلى الذي يحتذى به.⁽²⁸⁾

وأحد الأسباب التي وثقت العلاقات المسيحية - الإسلامية على مر التاريخ يعود إلى حقيقة أن معظم المسلمين العرب لهم أقارب مسيحيون. لذا، فقد أثمرت العلاقات الأسرية بين العائلات المسلمة والمسيحية في الشرق الأوسط تاريخياً نتائج غير عادية. أضف إلى ذلك أنه في عصر الخلافة الإسلامية لم يكن غريباً على مسيحي أن يكون قائداً في جيش الخليفة المسلم.⁽²⁹⁾

وتبقى الحقيقة المهمة أن المسيحيين العرب ليسوا أغراباً بأي شكل من الأشكال عن المجتمع الإسلامي، بل اشتركوا في صنع تاريخه، وأسهموا في حضارته ومدنيته مادياً ومعنوياً منذ أربعة عشر قرناً دون انقطاع، وقد كان إسهامهم بارزاً وبارعاً طوال هذه المدة وحائزاً على ثقة مواطنيهم وإخوتهم المسلمين.

1-5- الحوار الإسلامي - المسيحي الشرقي

بات الحوار الإسلامي - المسيحي اليوم في الشرق على مشارف من الفهم لم يبلغها فيما مضى؛ فقد كانت محاولات الحوار فيما مضى خجولة ومثقلة بميراث تاريخي مليء بالألم والحروب، إلا أننا اليوم نرى قفزات في التخاطب والحوار بعد أن أضحت إطلاع أحدنا على الآخر أكثر يسراً وسهولة، وأكثر شمولية وعمقاً من الماضي، وأضحت النفوس أكثر توقفاً إلى الوحدة بعد ما عانت من شدة التنافر ورهبة العزلة.

إن تعايش المسلمين والمسيحيين في الشرق بشكل عام وفي فلسطين بشكل خاص أكثر نجاحاً مقارنة مع أماكن أخرى في العالم؛ لخلوه من ماضٍ تاريخي مظلم، كما هو الحال بين مسلمي الشرق ومسيحيي الغرب، حيث ما زال التأثير بالمشاعر التي صاحبت الحروب الصليبية ماثلاً، ولم يتحرر المسلم بعد من وطأتها، ومن وطأة الاستعمار الغربي التي ما زالت آثاره بارزة للعيان.

إن المسيحيين العرب ليس لديهم - كالغربيين - حُمية فوبيا الإسلام، فهم أحرار من العقدة الصليبية؛ لأنهم ببساطة لم يكونوا خارج هذه الحملات فحسب، بل استهدفوا فيها أيضاً، وأهدرت دماؤهم فيها كما أهدرت دماء المسلمين. وهذه العلاقة المميزة بين مسيحيي العرب والمسلمين يؤمل بإسهام فريد من مسيحيي الشرق في دعم الحوار والتفاهم ليس بينهم وبين المسلمين فحسب، بل بين الشرق والغرب أيضاً.

إن المسلمين والمسيحيين يعيشون في المشرق العربي وفي سائر البلاد العربية تعايشاً يومياً لا يخلو من احتكاك وتصادم نفوذ، فالناس لا تخلو حياتهم من التصادم، ولكن الحياة تسير على الرغم من التناقضات بين أهلها؛ فمن الناس من يفهم ويحب ويحسن التعامل، ومنهم من يكره ويجهل، وليس للدين شيء من ذلك، فالدين شيء وممارسة الناس وفهمهم له شيء آخر، إلا أنه - بكل فخر - يمكن وصف العلاقات الإسلامية - المسيحية في فلسطين بأنها تقوم على صداقات طيبة وعلاقات حميمة تتجاوز إشكالية بعض العقول، وتصرفات بعض الجاهلين والمغرضين. فالمسيحيون العرب قرؤوا الإسلام، ليس في النصوص وحسب، بل من خلال مساكنة المسلمين ما يقرب من ثلاثة عشر قرناً من الزمان.

وييسر هذا التعايش الحميم الشعور بالوحدة الوطنية بما فيها وحدة اللغة وإطلاق الحريات العامة وعلى رأسها الحرية الدينية، بحيث لا يضطر أحد إلى الانزواء، ولا يشعر أحد بأنه مواطن من الدرجة الثانية، فالمواطنة الفلسطينية هي أرض الطمأنينة التي لا يبقى أحد فيها تحت حمى أحد.

كما يلاحظ اليوم ازدياد مطرد في الحوار الإسلامي الغربي - وهذا شيء إيجابي جداً - لكن هذا الحوار لا يأخذ بعين الاعتبار الوجود العربي المسيحي، ولا شك في «أن المسيحيين العرب يتحسسون الشدائد الواقعة على المسلمين؛ لأنها واقعة عليهم أيضاً، وإن انخراط المسيحيين في القضية العربية بالصدق والزخم الذي عرفنا، عاد بالخير العميم على المسلمين لكونهم غالبية العرب، وسيحس المسيحيون العرب بالتهميش إذا انحصر الحوار المسيحي الإسلامي بالتلاقي بين المسلمين وأهل الغرب»⁽³⁰⁾.

1-6 - التدخل الأجنبي في العلاقات الإسلامية - المسيحية

كل من المسيحي والمسلم في الشرق الأوسط يتجه نحو تحقيق العيش الواحد في حياة المواطنين المتساوين في أصل المواطنة، وفيما يترتب عليها من حقوق وواجبات، ولا يفرق بينهم في هذه الحياة أن أحدهما مسيحي والثاني مسلم، وإنما يجمعهما شرف الانتماء إلى وطن بنوه معاً، ويحمونه بدمائهم وأموالهم معاً، ويدفعون كل كيد يراد به بوقوفهم صفاً واحداً.⁽³¹⁾

وهذا لا يعني أنه لم تمر بالمسيحيين ظروف قاسية عبر تاريخ هذه المنطقة، إلا أنها كانت دائماً من فعل الغريب وبتأثير العنصر الأجنبي. إن سيطرة الغزاة والمحتلين على مقدرات الدولة العربية الإسلامية في عهود الاستعمار كان يثير أحياناً نزعات التعصب في النفوس في فترات من الأزمنة.

لقد عانى المسيحيون بسبب سيطرة العنصر الأجنبي على مقدرات الدولة صعوبات وأزمات عديدة في ظروف شاذة إلا أنهم بقوا متمسكين بمشاعر الأخوة والمودة والتواصل والتعامل الأخوي البناء بالتزام وطني وحس أخلاقي مع إخوانهم المسلمين كأبناء لهذا الوطن ولهذه الأرض الطيبة. فما فتئوا يتجاورون في السكن في أحياء مشتركة ويتزاورون في الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية، ويعايد بعضهم بعضاً، ويشارك أحدهم الآخر، أفراداً وجماعات في العمل والأفراح والأتراح.

ومن استقراء التاريخ يتبين لنا أن العرب في منطقة الشرق الأوسط لم يعرفوا حروباً أهلية بسبب الدين إلا بتحريض من الأجنبي ومنذ البدء كان الإيمان والشعور القومي هو الجامع، وكان الدين وكانت العروبة طريق التعايش بين الجميع، وهذا ما بدا واضحاً في القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، حيث عمل المسيحيون في هذه المنطقة وبشكل واضح ومكثف، من أجل بعث اللغة العربية فكتبوا فيها، وألّفوا القواميس وتعاملوا بحس أخوي وقومي عربي مع إخوانهم المسلمين.⁽³²⁾ ورفضوا المحتلين الغربيين - تحت ستار حماية الأقليات - ونذكر أن كثيراً من المفكرين وكبار رجال السياسة المسيحيين وقفوا على المنابر ليرفضوا حماية هؤلاء المحتلين للأقليات.

إن التدخل الأجنبي في شؤون المسيحيين والمسلمين وعلاقاتهم بعضهم ببعض أمر مرفوض من الفريقين جميعاً، أو على الأقل من كثرتهم الغالبة الوطنية العاقلة؛ فهم يعيشون معاً، ولا يشعرون بتصادم بين عروبتهم ودينهم، والتعصب مرفوض إن كان عند المسيحيين أو عند المسلمين، وهو تنكر للعروبة ويصب في مصلحة الكيان الصهيوني.

إن هناك تأثيراً واضحاً لليهودية الصهيونية على بعض الأطراف المسيحية، تتجلى مظاهره في مواقف عديدة تصبُّ جميعها في الاتجاه المناهض للحقائق التاريخية. وعلى سبيل المثال، ظهرت في بريطانيا أولاً، ثم في الولايات المتحدة الأمريكية حركات دينية

مسيحية إنجيلية، أهمها وأقواها ما يُعرف بالحركة التبديرية DISPENSATIONALISM. وهذه الحركة تؤمن بأن في الكتاب المقدس نبوءات واضحة حول عودة اليهود إلى فلسطين، وقيام إسرائيل. وأتباع هذه الحركة يؤمنون بأن اليهود هم شعب الله المختار، وبحقّ اليهود في التجمّع في أرض فلسطين. وهذه الحركة هي الأساس الراسخ للصهيونية المسيحية. ومن جانب آخر هناك حركات إسلامية متطرفة ترتكب أعمالاً إرهابية وتحقق أجندة غربية تلقى منها دعماً مباشراً وغير مباشر.

إن السنوات العشر الأخيرة لم تمرّ بسهولة على المسيحيين في الشرق الأوسط. فالعديد من الأحداث، بما فيها الغزو الأمريكي للعراق، رسّخ الاعتقاد الخاطئ في أن «الغرب المسيحي» قد أعلن الحرب على «الشرق الأوسط المسلم». فكثير من المسلمين ينظرون إلى العمليات العسكرية الأمريكية ضد الدول ذات الأغلبية المسلمة على أنها ذات طابع ديني؛ لأن الولايات المتحدة هي في نظر المسلمين أمة مسيحية.

للأسف، وانتقاماً للهجمات العسكرية الأمريكية ضد دول ذات أغلبية مسلمة، مثل العراق، نفذ مسلمون متطرفون هجمات على المسيحيين في عدد من دول الشرق الأوسط. فاستهدفت كنائس في مصر والعراق من قبل متطرفين باتوا ينظرون بريبة إلى المسيحيين في بلدانهم على اعتبار أنهم يتشاركون الديانة نفسها مع غالبية الشعب الأمريكي.⁽³³⁾

إن الهجمات الأخيرة على الكنائس المسيحية في العراق ومصر أمر غير مألوف على الإطلاق في نظر المسلمين المحليين، وهو استهداف غير مقبول - بل مرفوض - من قبل جميع المسلمين في أنحاء العالم. تبعاً لذلك، فإن من واجب كل مسلم حماية المسيحيين والحفاظ على وجودهم ودورهم في الشرق الأوسط، سواء أكانوا من الكنائس الأرثوذكسية أم الكاثوليكية أم غيرها؛ لأن هؤلاء المسيحيين هم جزء من النسيج الرئيسي لمجتمعات الشرق الأوسط وليسوا دخلاء كما يحاول بعض المتطرفين تصويرهم. ووفقاً للقرآن الكريم، فإنه يتوجب على المسلمين حماية جميع الناس الذين يعيشون بينهم والدفاع عنهم.

1-7 - الهجرة المسيحية إلى الغرب

كان الحديث قبل عدة قرون عن أوضاع المسيحيين في الشرق يتمحور حول دورهم في صناعة الشخصية المشرقية - العربية. سواء من حيث الثقافة والتربية، أو من حيث

الاقتصاد والاجتماع، أو من حيث النضال الوطني. كانت أدوارهم ومواقفهم وأدبياتهم في هذه المجالات كافة جوهرية وأساسية. وكانت تعبر بواقعية عن أصالتهم المشرقية وعن التزامهم بقضايا أمتهم وفي صناعة مصير دولهم الوطنية ومستقبلها.

ولكن ارتفاع وتيرة التطرف الديني في الآونة الأخيرة، واتساع مساحات التوظيف السياسي للدين، والتوظيف الديني للسياسة تبعث على القلق الشديد؛⁽³⁴⁾ لأن مثل هذه الحالة قد تدفع بعض المسيحيين إلى الهجرة مع ملاحظة أنها ليست السبب الرئيس في تلك الهجرة، حيث أكدت بعض الدراسات - ومنها دراسة مسحية أجراها مركز السبيل (عام 2006)⁽³⁵⁾ - أن السبب الرئيس في هجرة المسيحيين الفلسطينيين هو الاحتلال الإسرائيلي وغياب العدل والحياة الطبيعية التي تسمح للمسيحي والمسلم على السواء بتطوير حياته والتحكم بمستقبله.

إن المشكلة التي يواجهها مسيحيو الشرق تتمثل في هجرتهم من المنطقة. وهذه الهجرة ليست مصيبة على المسيحيين وحدهم ولكنها مصيبة على المسلمين أيضاً؛ فنتائج الهجرة وانعكاساتها، ليست سلبية على المسيحيين فقط، وإنما على شخصية العالم العربي وهويته وعلى مستقبله ومصيره أيضاً، وتؤدي إلى تفسخ المجتمعات العربية وإلى تأكلها، ومن ثم إلى خسارة عناصر ومقومات جوهرية في البنية المجتمعية لبلدان الشرق. من ناحية أخرى فإنها تقدم رسالة سلبية إلى المجتمعات في العالم بأن الإسلام يضيق ذرعاً بغير المسلمين. وهذا سوف يدفع ثمنه المسلمون الذين يعيشون في مجتمعات غير إسلامية⁽³⁶⁾؛ ذلك أن ظاهرة هجرة المسيحيين الشرقيين إلى الغرب؛ تزيد من ظاهرة سلبية وخطيرة أخرى، وهي الإسلاموفوبيا؛ أي الخوف من الإسلام وكرهيته عن جهل به. فظاهرة الهجرة المسيحية من الشرق تعزز من ظاهرة الإسلاموفوبيا في الغرب؛ الأمر الذي يلحق بالإسلام من جراء هذه الهجرة ضرراً مزدوجاً. الضرر الأول: هو تعريض المجتمعات المشرقية الإسلامية المسيحية إلى التفسخ، وفقدان جماعات أساسية من مكونات نسيجها الوطني تتمتع بقدر عال من الثقافة والمعرفة والخبرة، وتمتد هذه المجتمعات بثروة التنوع الديني والثقافي، أما الضرر الثاني فهو توظيف الهجرة المسيحية بشكل يوحي بأن الإسلام يضيق ذرعاً بالآخر المختلف، وأنه لا يقبل سوى نفسه، بل أحياناً لا يقبل حتى نفسه.⁽³⁷⁾

من أجل ذلك فإن ثمة أمرين لا يمكن تبريرهما ولا السكوت عليهما. الأمر الأول هو ضعف الشعور الإسلامي العام بأبعاد الهجرة المسيحية من الشرق، وبخطرها على هوية الشرق وعلى مكوناته البشرية والفكرية والثقافية والروحية المتعددة، وكذلك بخطرها على سمعة الإسلام وصورته في العالم. والأمر الثاني هو تنامي قوة الشعور الغربي المتعاطف مع المسيحيين الشرقيين إلى حد المطالبة بتسهيل هجرتهم وتوطينهم وتذويبهم في الدول التي يهاجرون إليها.⁽³⁸⁾ ويتطلب الوقوف في وجه هذه الظاهرة بهدف إخراجها من إطارها المسيحي إلى الإطار الإسلامي المسيحي، بحيث تصبح قضية إسلامية بقدر ما هي قضية مسيحية. وهذا يتطلب مبادرات لتحريك جامعة الدول العربية، ومنظمة المؤتمر الإسلامي ومؤسسات المجتمع المدني كالأزهر ورابطة العالم الإسلامي ومؤسسة آل البيت وجمعية الدعوة الإسلامية العالمية ومجلس كنائس الشرق الأوسط ومجلس الكنائس العالمي والفاتيكان .. إلخ.

إن هجرة المسيحيين من الشرق الأوسط تساهم في إفقار الهوية العربية وثقافتها وأصالتها، إذن، لا بد من الحفاظ على الوجود المسيحي في الشرق الأوسط كضرورة إسلامية بقدر ما هو ضرورة مسيحية، وواجب إسلامي بقدر ما هو واجب مسيحي.

الفصل الثاني

فلسطين كنموذج للعيش الواحد بين المسلمين والمسيحيين

2-1 العلاقات المسيحية - الإسلامية في فلسطين

إن العلاقات بين المسلمين والمسيحيين الفلسطينيين تقوم على مبدأ الأخوة والتسامح، والدليل على هذا كله العيش المشترك بينهم، فهم يعيشون بعضهم مع بعض مثل الإخوة، وترابطهم علاقة متينة بحيث لا يشعرون باختلاف يفرقهم بعضهم عن بعض سوى الاختلاف في الديانة التي بعثها الله وهو الخالق الواحد. وفي فلسطين تجتمع الديانات التوحيدية الثلاث: الإسلامية والمسيحية واليهودية⁽³⁹⁾؛ لأن فيها عاش النبي موسى - عليه السلام -؛ وفيها ولد أيضاً السيد المسيح، وأيضاً وعاش فيها النبي محمد وعرج منها إلى السماء، وهذا يدل على أن فلسطين دولة لها تاريخها الديني وهي مركز الديانات السماوية الثلاث؛ فهي تقع في

مركز العالم بين قارة إفريقيا وأوروبا وآسيا، وهذا يؤدي إلى الاختلاط الثقافي والديني مع شعوب العالم كله.

ويقول الدكتور عكرمة صبري رئيس الهيئة الإسلامية العليا وخطيب المسجد الأقصى المبارك بفلسطين عن العلاقات الإسلامية المسيحية: «لقد بدأت هذه العلاقة منذ خمسة عشر قرناً في فلسطين، حينما تسلم الخليفة العادل عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - مفاتيح مدينة القدس وجد أن المسيحيين في مدينة القدس خاصة وفلسطين عامة فضلوا حكم أمير المؤمنين على حكم الرومان، الذين كانوا يحكمون فلسطين مدة خمسة قرون، وعلى الرغم من أن الرومان ينتمون للمسيحية فإن العرب المسيحيين في فلسطين فضلوا حكم المسلمين».

وأشاد الوكيل البطيركي في مدينة بيت لحم المطران ثيوفلكتوس راعي كنيسة الروم الأرثوذكس،⁽⁴⁰⁾ بالأمن والحرية التي تحظى بها المقدسات المسيحية في الأراضي الفلسطينية، مؤكداً أن فلسطين أصبحت نموذجاً حياً للتسامح والتعايش الديني المعاصر. وأعرب عن تقديره للعلاقة الإسلامية - المسيحية والتسامح الديني الكبير الذي يحكم هذه العلاقة التي تعود في جذورها إلى العهدة العمرية؛ كونها مثلاً على عظمة الإسلام وتسامحه، وأشار إلى أن المسيحيين يحتفلون بهذه المناسبة في محاضراتهم واحتفالاتهم داخل الوطن وخارجه، لتكون أسوة لغيرهم من دول العالم وشعوبه أجمع.

ويشكل المسلمون والمسيحيون في فلسطين شعباً واحداً؛ فهم يشتركون في البيئة الثقافية والحضارية والسياسية نفسها، ولهم تاريخ مشترك، ولهم تطلعات مشتركة ومستقبل واحد. ولم يكن اختلاف الدين في يوم من الأيام سبباً لنزاع أو شقاق، وإن حدث خلاف فذلك مما يحدث بين الأشقاء والإخوة.

وقد أكد الدكتور حنا عيسى - وكيل الشؤون المسيحية المساعد بوزارة الأوقاف والشؤون الدينية - أن التسامح الديني في فلسطين يقوم على سياسة وطنية من خلال مناهج التدريس ووسائل الإعلام المختلفة والوظائف العامة والخاصة وتقديم الخدمات المختلفة،⁽⁴¹⁾ وهو واقع معيش مشترك يستند إلى زوايا النسيج الاجتماعي، وهو نضال مشترك وميدان تنافس ومكافأة في ثقافة يتوارثها الأجيال، ولهذا فإن مظاهر التسامح الديني يمكن مشاهدتها في كل مكان من فلسطين، حيث الكنائس والجوامع جنباً إلى جنب، فلفلسطين دور تاريخي

على اعتبارها مهد الديانات السماوية الثلاث في انتشار المسيحية إلى العالم والحالة الإخاء الديني القائمة فيها⁽⁴²⁾.

والفلسطينيون يتطلعون إلى التنوع في مجتمعهم على أنه أحد أسباب قوتهم وتكاملهم؛ فالأرض الفلسطينية مقدسة لدى المسيحيين والمسلمين، وهذا التقديس المشترك سبب لاحترام الآخر في اختلافه وليس تسامحاً مؤقتاً. والمعاناة التي مر بها الشعب الفلسطيني في تاريخه المعاصر كانت سبباً لمزيد من اللحمة والتضامن.

ومع ذلك، فالفلسطينيون ليسوا بمعزولين عن واقع هذا العالم الذي نعيش فيه ولا عن التطورات التي تمر بها منطقتنا والعالم. من هنا تبرز أهمية النظر إلى واقع العيش المشترك، ولا نقول الحوار، بين المسلمين والمسيحيين، فالحوار يتم بين مختلفين يريدون حل مشكلاتهم أو تخفيف احتكاك قد يهدد أمن المجتمع أو تناغمه؛ أما الفلسطينيون فهم شعب واحد وثقافة واحدة يتعايشون في بيئة واحدة، ومصيرهم مرتبط بالآخر.

2-2 - المسيحيون في فلسطين وتوزعهم

المسيحيون هم سكان فلسطين الأصليون قبل الفتح العربي. غير أن عدد المسلمين راح يتزايد بالتدريج نتيجة للتدفق المتتالي للقبائل العربية على الديار المقدسة وبلاد الشام، وللازدياد عمليات التحول من المسيحية إلى الإسلام.

كانت نسبة المسيحيين إلى مجموع السكان في فلسطين سنة 1890 نحو 13%. ومع بداية الانتداب البريطاني في سنة 1917 هبطت إلى 9.6%. وفي عام 1931 صارت 8.8%. وفي عام النكبة سنة 1948 بلغت 8%. أما في سنة 2000 فقد بلغت 1.6% فقط. وهذه حال مروعة. وللمقارنة، فقد كان عدد المسيحيين عام 1948 في الضفة الغربية وحدها 110 آلاف نسمة. ولو بقي هؤلاء في أراضيهم لبلغوا مليوناً على الأقل في هذه الأيام، بينما عددهم الآن أقل من خمسين ألفاً. وفي القدس كان عدد المسيحيين عشية النكبة سنة 1947م 27 ألفاً. ولو ظلوا في المدينة لكان عددهم اليوم أكثر من 150 ألفاً، بينما لا يتجاوز عددهم اليوم ثمانية آلاف فقط⁽⁴³⁾.

ومعظم مسيحيي الأراضي الفلسطينية موجودون في الضفة الغربية؛ حيث يصل عددهم إلى أكثر من 51000 ألفاً، منهم 10 آلاف في القدس، في حين أن عددهم في قطاع غزة هو في حدود 5000 مسيحي فقط. وفي داخل الخط الأخضر (فلسطين 48) يوجد ما يراوح

بين 144،000 إلى 196،000 مسيحي يمثلون 2.1 - 2.8 % من سكان إسرائيل، أو ما يعادل 8.8 % من عرب الداخل الفلسطيني.

ويشكل المسيحيون في فلسطين بين 2 % - 3 % فقط من تعداد سكان الأراضي الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة؛ وذلك لأن معظم مسيحيي فلسطين قد تم تهجيرهم قسرياً وطردهم من بيوتهم ووطنهم من قبل العصابات الصهيونية عام 1948، بالإضافة إلى هجرة البعض بعد ذلك بسبب الاحتلال الصهيوني وهدار الفصل العنصري، ولأسباب اقتصادية أيضاً⁽⁴⁴⁾.

والمسيحيون الفلسطينيون هم جزء أصيل من نسيج المجتمع الفلسطيني، لا يفصلهم عن إخوانهم وأبناء وطنهم المسلمين شيء سوى ديانتهم، فقد عاشوا الظروف الاجتماعية والسياسية نفسها، ولهم العادات والتقاليد وحتى الأعياد الدينية والمناسبات الشعبية نفسها. ولا حاجة لذكر الدور المميز الذي أداه المسيحيون الفلسطينيون في إثراء الثقافة الفلسطينية؛ فالعديد من الكتب والمراجع تبرز هذا الدور.⁽⁴⁵⁾

2-3 - المسيحيون الفلسطينيون والمقاومة الوطنية

شكل المسيحيون الفلسطينيون في الأراضي الفلسطينية ركيزة مهمة في التاريخ الفلسطيني المعاصر والحركة الوطنية منذ بداية القرن الماضي.

وفي نهاية القرن التاسع عشر، ومع ظهور الحركات القومية في الشرق، انضم المسيحيون لهذه الحركات، بل كانوا من روادها وقادتها؛ وربما كان ذلك بسبب المدارس الأجنبية التي التحق بها المسيحيون مبكراً للتعلم، والتي سهلت اطلاعهم على الحركات القومية في أوروبا. ومع نهاية الإمبراطورية العثمانية وبداية الانتداب البريطاني، كانت اللجان المسيحية الإسلامية في فلسطين هي المدافع القوي عن الاستقلال، ولم تخل اللجان المحلية أو الوطنية من أعضاء مسيحيين فاعلين.

ولقد برز المسيحيون الفلسطينيون في قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية بقوة، وكان لهم الحضور الكبير في النضال الوطني منذ سنة 1917 حتى اليوم، والدليل على ذلك أن اليد اليمنى للحاج أمين الحسيني كان إميل الغوري. وأبرز مساعدي المفتي كان عزت طنوس وعيسى نخلة وهما مسيحيان، ونائب رئيس الحزب العربي الفلسطيني الذي أسسه المفتي

بنفسه كان ألفرد روك. وكثير من المسيحيين كانوا رواداً كباراً في الحركة القومية العربية، ومن أبرز القادة الوطنيين المسيحيين جورج حبش وكمال ناصر ونايف حواتمة ووفى الصايغ. وقد سطرت أسماء مسيحية مسيرة النضال الفلسطيني كالدكتورة حنان عشاوي والدكتور عزمي بشارة والعشرات من قادة الفكر والنضال، ومن المسيحيين أعضاء في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، ومنهم نواب في المجلس التشريعي الفلسطيني ووزراء في جميع الحكومات الفلسطينية المتعاقبة. ولا تقتصر هذه المشاركة على هذه الأسماء المعروفة، بل تتعداها إلى جموع المسيحيين التي عاشت في فلسطين كأبناء لهذا الوطن، يعانون ما يعاني باقي سكانه ويعملون معهم ومن أجلهم.

وقد حاول الإسرائيليون بشكل مستمر ومتكرر اللعب على وتر العلاقات الإسلامية المسيحية في فلسطين، ومحاولة إثارة مشكلات طائفية ودينية بين أبناء الشعب العربي الفلسطيني من مسلمين ومسيحيين، مستخدمين أساليب شتى بغية إثارة الطائفية والنزاعات الدينية، خصوصاً بين المسلمين والمسيحيين كمحاولة إثارة موضوع الأقلية والأكثرية، واتهام المسلمين بالتسبب في الهجرة المسيحية، إلا أن المسيحيين واجهوا دوماً هذه المؤامرات والخطط التفريقية، وعملوا على مواجهة الممارسات الصهيونية بحقهم فأصدروا وثيقة لاهوتية، تعد الأولى من نوعها، وتدعو إسرائيل لإنهاء احتلالها للأراضي الفلسطينية بما فيها القدس المحتلة. وجاءت هذه الوثيقة بعنوان: «وقفه حق: كلمة إيمان ورجاء ومحبة من قلب معاناة الشعب الفلسطيني». وهي تشدد على القيم المسيحية والإنسانية، وتناشد المجتمع الدولي الوقوف إلى جانب المظلومين من أجل إعطاء الفلسطينيين حقوقهم الإنسانية المنتهكة وتحرير «الإسرائيليين» من عنف احتلالهم.

ويؤكد المسيحيون في الوثيقة ضرورة تعايش المسيحيين والمسلمين واليهود على هذه الأرض باحترام متبادل، كما تحث المسيحيين المحليين على الصمود والثبات والرجاء والعمل. وتدعو الكنائس والحكومات والأفراد والمجتمع الدولي إلى وضع نظام للعقوبات الاقتصادية ومقاطعة إسرائيل.

وقد التحم المسيحيون الفلسطينيون مع إخوانهم المسلمين الفلسطينيين في النضال والكفاح معاً في سبيل تحرير فلسطين والإبقاء على عروبته والحفاظة على مقدساتها، منذ عهد بعيد وحتى يومنا هذا، وذاق الآلاف منهم مرارة الاعتقال وقسوة السجن، واحتجزوا مع

المعتقلين المسلمين في ظروف قاسية ، وتعرضوا لما تعرض له باقي المعتقلين الفلسطينيين من معاملة لا إنسانية ولصنوف مختلفة من التعذيب والحرمان، وكانوا شركاء في الألم والصمود والنضال خلف القضبان. وكان من ضمنهم قيادات ورموز للحركة الأسيرة، أمثال المطران كبوتشي، والياس جرايسة وغيرهما كثير ومن مناطق جغرافية مختلفة في فلسطين، وقائمة شهداء الحركة الوطنية الأسيرة تضمنت أسماء مسيحيين.

2-4 - أمثلة حية على العيش المشترك

يعيش المسيحي الفلسطيني في مجتمع تسوده الثقافة الإسلامية، ولا يضيره ذلك؛ فهو يسمع الأذان صباح مساء، ويتلذذ لسماع القرآن الكريم، ويستمتع إلى الدروس والخطب الدينية الإسلامية في كل مكان في المساجد وفي المدارس وفي وسائل الإعلام المختلفة، فهو ليس بعيداً عن الإسلام وليس بعيداً عن ثقافة المسلمين بل هو جزء منها.

وهذه الحياة النموذجية للتعايش بين المسيحيين والمسلمين تنطبق على سكان الضفة الغربية وقطاع غزة، وأنقل هنا قول المواطن نصر الجلدة (51 عاماً، وهو مسيحي من طائفة الأرثوذكس في غزة) عن علاقته بالمسلمين: ”أعيادنا أعيادهم وأفراحنا أفراحهم وحزننا حزنهم، وأنا لست غريباً في وطني كوني مسيحياً. ولدي علاقات قوية مع الإخوة المسلمين وأصدقائي منهم بنسبة 99 %، وقد ذهبت لزيارة جاري المسلم عندما أجريت له عملية جراحية، وأهديته كتاب القرآن الكريم، فكل منا يحترم دين الآخر وشعائره لأنهما دينان سماويان ومنزلان من الله، فنحن إخوة ويسود بيننا المحبة والأخوة والانتماء لهذا الوطن الحبيب.“

ويقول مواطن مسيحي غزي آخر، هو السيد قرمش: «نحن في هذا الحي نشكل وحدة أخوية في الأديان رغم اختلافها، ولا أحد يتدخل في الآخر، وللجميع مطلق الحرية في ممارسة العبادة دون أن يتعرض أحد لأحد».

أما المواطن كامل عياد (38 عاماً وهو مسيحي يعمل مديراً للعلاقات العامة في كنيسة الروم الأرثوذكس) فيقول: «أرفض كلمة مسيحي ومسلم على هامش الوطن؛ نحن جزء لا يتجزأ من هذا الوطن لأننا كلنا عرب وفلسطينيون، ومعاناتنا واحدة على جميع المستويات السياسية والاقتصادية وخاصة في ظل الحصار على هذا الوطن؛ وهذه المعاناة لا تفرق بين

مسلم ومسيحي، ولا أشعر ولا أجد أي اختلاف بيننا كمسيحيين ومسلمين في فلسطين عامة، وفي هذا الحي خاصة إلا مسألة الدين، ونحن نحترم كل الأديان وهي رسائل سماوية إلهية».

ومن جهة أخرى يرى الأستاذ حسام الطويل النائب بالمجلس التشريعي عن الطائفة المسيحية أن الحياة بين المسلمين والمسيحيين قائمة على الأخوة والمحبة ولا توجد مشكلات ولا فوارق حيث يقول: «لا فرق بين مسلم ومسيحي، ومخطئ من يقول إن المسيحيين أقلية، نحن هنا بين أهلنا ونحن عرب جزء لا يتجزأ من الأغلبية العربية بوطننا العربي، نحن كلنا نتطلع إلى أرضنا من أجل المحافظة على الهوية الفلسطينية بأيدٍ إسلامية مسيحية، نحن وحدة واحدة في هذا الوطن مسلمين ومسيحيين، نتشارك بالعادات والتقاليد وبوحدة المصير والأمل تجاه القدس والمقدسات الإسلامية والمسيحية، والشعب الفلسطيني بمكوناته يعيش وحدة الحال، بمعنى أنه متشارك بالألم والآمال ومنتظر المستقبل الواعد ليوحدنا جميعاً. لقد عصفت بوطننا الترحيل والتهجير والنكبة الفلسطينية، هذا كله كان له أثر في خلق حالة من وحدة الحال الفلسطيني سواء كانوا مسلمين أم مسيحيين».

والعلاقة التي تنطبق على الفلسطينيين في مناطق الضفة الغربية وقطاع غزة هي ذاتها العلاقة التي تربط بين المسيحيين والمسلمين في فلسطين المحتلة عام 1948، فمن جهته يصف الشيخ رائد صلاح رئيس الحركة الإسلامية داخل الخط الأخضر هذه العلاقات بقوله: «نحن نعيش ضمن جغرافية واحدة، قد نتجاوز في المنازل ونعرف أخبار بعضنا أكثر من أن نعرف أخبار إخواننا الذين يبتعدون عنا في السكن. لذا هناك علاقات وطيدة بين العائلات المسلمة والمسيحية التي تسكن كل مدن فلسطين. وما نحياه من ظروف سياسية صعبة ينطبق على كلينا؛ فالاحتلال لا يفرق بين مسيحي ومسلم في انتهاكاته ضد الفلسطينيين أو ضد الأماكن المقدسة».

وفي سؤال وجهته إلى طلبة الصف العاشر الأساسي في المدارس المسيحية في فلسطين حول العيش المشترك، يقول الطالب وليم جمال عودة رزق الله من مدرسة دار الكلمة:

«علاقة العيش المشترك تدعو لاحترام الحريات والرموز الدينية ومنع الإساءة إليها واحترام حرية الدين والعقيدة واحترام الرسل والكتب المقدسة والنصوص الدينية كافة، وتحريم

تدنيستها أو الإساءة إليها واحترام الواحد للآخر؛ كوننا نعبد إلهاً واحداً ونعيش في وطن واحد وهمومنا واحدة، وهذه العلاقة سامية مبنية على الحب المتبادل والمودة والصدق».

ويقول الطالب ربيع أبو غنية من المدرسة ذاتها: «... هذا يدل على التفاهم والاحترام بين المسلمين والمسيحيين ، وهم مثل الإخوة يتبادلون مشاعر الحزن والفرح».

كما أكد الأسير السابق ، الباحث المختص عبد الناصر فروانة، متانة العلاقات الإسلامية المسيحية في فلسطين وقوتها وصلابتها وتميزها، وأن الفلسطينيين أياً كانت ديانتهم المسيحية أم الإسلامية يعيشون إخوة وأصدقاء وزملاء في العمل والعلم والنضال، وجيراناً في المسكن أيضاً، وهم شركاء في المعاناة وفي النضال ضد الاحتلال، وانتموا لفصائل منظمة التحرير الفلسطينية.

ومن الجدير بالذكر أن ما شهدته الطائفة المسيحية خلال الفترة الماضية من اعتداءات هنا وهناك، كانت أحداثاً عابرة وفردية في الغالب، ولا يشعر المسيحيون بالخوف منها، فهي أحداث يومية عابرة، تمثل نوعاً من النزاع بين أبناء البيت الواحد، فالعلاقات المسيحية الإسلامية في فلسطين متينة وقوية وصلبة، والفلسطينيون أياً كانت ديانتهم مسيحية أم إسلامية يعيشون إخوة وأصدقاء وزملاء في العمل والعلم والنضال وجيران في المسكن أيضاً، وهم شركاء في المعاناة وفي النضال ضد الاحتلال، وانتموا لفصائل منظمة التحرير الفلسطينية.

2-5 - ثقافة التسامح في تاريخ الشعب الفلسطيني

عاش المسلمون والمسيحيون معاً مدة خمسة عشر قرناً؛ وخلال هذه الفترة، ترسخت ثقافة التعايش واحترام الآخر. ويظهر ذلك في العديد من أوجه الحياة، منها تسكن المسلمين والمسيحيين في القرى والمدن نفسها، حيث إن التوزيع السكاني يظهر تركيبة سكانية لا تعتمد الدين في توزيعها. فالمسيحيون والمسلمون سكنوا في المدن والقرى والأحياء نفسها، كما أنهم اختلطوا في المؤسسات التربوية والاجتماعية والسياسية.

ويرتبط المسيحيون والمسلمون في فلسطين بعلاقة تاريخية مميزة منذ صدر الإسلام، حين وقع الخليفة المسلم عمر بن الخطاب وبطريك مدينة القدس صفرونيوس العهدية العمرية

في السنة الخامسة عشر للهجرة سنة 633 م، لتكون وثيقة احترام ومحبة بين المسلمين والمسيحيين في فلسطين، ومنذ ذلك التاريخ حتى الآن وأهل فلسطين ملتزمون بهذه العهدة التي تحافظ على حقوق المسيحيين والمسلمين في فلسطين؛ فالمسلمون والمسيحيون في فلسطين يعيشون معاً بكل محبة واحترام، ولا يوجد هنالك أي نغرة طائفية، ويتعايشون بعضهم مع بعض، ويتعاملون فيما بينهم يومياً؛ فالشعب الفلسطيني شعب واحد، وعلى الرغم من التعددية الدينية فإنهم ينتمون إلى أرض واحدة هي أرض فلسطين، يجمعهم التشارك والتعاون على جميع الصعد الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية، ومن خلال ذلك لا بد أن نحافظ على هذا التعايش المميز.

ومع تعدد الديانات في فلسطين ووجود أماكن مقدسة لهذه الديانات، نشأت في فلسطين ثقافة دينية مميزة، لا تقوم فقط على احترام ديانة الآخر وأماكنه المقدسة، بل تعداه إلى تداخل ديني وثقافة شعبية دينية تجل أماكن الآخر الدينية وتعتبرها مقدسة للجميع، ومشاركة في الاحتفالات الدينية للآخر. فالحرم الإبراهيمي الشريف الذي يضم قبور الآباء إبراهيم وأبنائه وأزواجهم مكان مقدس يجله المسلم والمسيحي واليهودي، وكذلك الأمر في مقام الخضر في مدينة اللد أو بالقرب من بيت جالا، ومقام النبي إيليا قرب بيت لحم، حيث يعتبرها المسيحي والمسلم أماكن مقدسة، لا بل يشتركون في زيارة هذه الأماكن في أوقات الأعياد. وما ذكرناه سوى نماذج لتداخل الأماكن المقدسة واحترام خصوصيتها، وليس ما يحيط بهذه الأماكن من تعبدات شعبية إلا صورة متناغمة عن طبيعة العيش المشترك بين أتباع الديانات في فلسطين.

إذا كان هذا ما يميز - تقليدياً - التعايش بين المسيحيين والمسلمين، أفهذا الوضع لا يزال على ما هو؟ أم أن هنالك تأثيرات ومتغيرات على طبيعة هذا العيش المشترك؟ نلقي الآن نظرة إلى واقع العلاقات الإسلامية - المسيحية اليوم في ظل السلطة الوطنية الفلسطينية، ثم نرى مظاهر التغيير في مجتمعنا وأثره على هذه العلاقات.

2-6 - العلاقات المسيحية - الإسلامية في ظل السلطة الوطنية الفلسطينية

يقوم التسامح الديني في فلسطين منذ دخول السلطة الوطنية الفلسطينية على سياسة وطنية تبنتها السلطة الفلسطينية، تتضح من خلال النظر في مناهج التدريس ووسائل الإعلام

المختلفة والوظائف العامة والخاصة وتقديم الخدمات المختلفة، وتستند إلى رصيد تاريخي كبير من الأمن والنماء والتعايش المشترك بين أبناء الشعب الفلسطيني بمسليميه ومسيحييه. ويمكن بسهولة مشاهدة مظاهر التسامح الديني في فلسطين، ومن هذه المظاهر على سبيل المثال لا الحصر:

1 - الدستور الفلسطيني يضمن حقوق المسيحيين: نصت المسودة الثالثة للدستور الفلسطيني (عام 2003) على أن «الإسلام هو الدين الرسمي في فلسطين، وللمسيحية ولسائر الرسالات السماوية قدسيته واحترامها. ويكفل الدستور للمواطنين أياً كانت عقيدتهم الدينية، المساواة في الحقوق والواجبات» (المادة 5). أما (المادة 7) فتتص على أن «مبادئ الشريعة الإسلامية مصدر (لاحظ: مصدر، وليس المصدر) رئيسي للتشريع. ولأتباع الرسالات السماوية تنظيم أحوالهم الشخصية وشؤونهم الدينية وفقاً لشرائعهم وملهمهم الدينية في إطار القانون، وبما يحفظ وحدة الشعب الفلسطيني واستقلاله». وتضمن المادة الثامنة حرية ممارسة النشاط السياسي «دون تمييز بسبب الرأي السياسي أو الجنس أو الدين». وتتضمن المادة (رقم 36) «حرية العقيدة وممارسة شعائر العبادة وفقاً لأحكام الدستور. وتكفل الدولة حرية الوصول إلى الأماكن المقدسة الخاضعة لسيادتها... وتكفل الدولة لكل أتباع الأديان السماوية حرمة أماكن العبادة المقدسة، طبقاً للالتزام التاريخي للشعب الفلسطيني، والالتزامات الدولية لفلسطين». (46)

وكما نرى من خلال مواد الدستور السابقة الذكر فإن المساواة أمام القانون من أهم مبادئ دولة القانون، ويكرس هذا الإرث التاريخي للشعب الفلسطيني.

2 - وظائف سيادية للمسيحيين في السلطة الفلسطينية: فبحكم كون المسيحيين قليلي العدد، عمدت السلطة الوطنية الفلسطينية لاتخاذ إجراءات تركز تمثيلاً مسيحياً في مؤسسات السلطة، كتخصيص عدد من مقاعد المجلس التشريعي (6 مقاعد) للمسيحيين الفلسطينيين. إضافة إلى أن القانون أتاح للمسيحيين التنافس على مختلف المقاعد، حتى غير المخصصة للمسيحيين. وقد فاز عضو في المجلس

التشريعي الحالي عن أحد الأحزاب، وليس ضمن القائمة المحلية التي خصص فيها مقاعد للمسيحيين؛ لذلك يبلغ عدد المسيحيين في المجلس التشريعي سبعة أعضاء. كما أن مسودة الدستور الفلسطيني لا تخصص أي مناصب للمسلمين، ولا حتى منصب رئيس الدولة. وفي مختلف الوزارات التي شكلت في السلطة الفلسطينية، كان هنالك وزراء مسيحيون، حتى في الوزارة التي شكلتها حركة حماس. وبذلك نرى تقليداً في مشاركة المسيحيين في مختلف مؤسسات السلطة الفلسطينية.

أما في المدن والبلدات التي فيها نسبة كبيرة من المسيحيين، فإن مرسوماً رئاسياً خصص رئاسة المجلس البلدي وعدداً من المقاعد في المجلس نفسه للمسيحيين. وفي هذا إشارة واضحة إلى أن مبدأ المواطنة لا يتميز فيه من كان ضمن الأغلبية، وأن الهوية الفلسطينية هي الأهم في من يحتل منصباً لخدمة الشعب.

وما ذكر سابقاً ما هو سوى مثال على معاملة المسيحيين في السلطة الوطنية الفلسطينية كمواطنين، لهم الحقوق نفسها، وعليهم الواجبات نفسها. لذلك فهم موجودون في كل مؤسسات السلطة، يعيشون كمواطنين، ويعاملون كمواطنين.

3 - المناهج التعليمية تعمق العلاقات الإسلامية المسيحية: وفي خطوة فريدة من نوعها في الشرق، قامت الوزارة بدعوة ممثلين عن الكنائس المسيحية في فلسطين لتدارس إمكانية إعداد مناهج للتربية المسيحية يدرس لجميع الطلبة المسيحيين بغض النظر عن طوائفهم، وقد تم ذلك بالفعل، وكانت هذه تجربة رائدة وفريدة، فالطلبة المسيحيون - على اختلاف طوائفهم - يدرسون منهجاً واحداً تم التوافق عليه. وقد تمت صياغة كتب تعليم مسيحي مشتركة بين الكنائس، وتكفلت وزارة التربية والتعليم بطباعة هذه الكتب وتوزيعها على جميع المدارس، بما فيها المدارس الحكومية؛ حيث يدرس طلاب مسيحيون.

ولم يقتصر اهتمام وزارة التربية والتعليم على إعداد منهج التربية المسيحية للطلبة المسيحيين فحسب، بل إن المناهج الفلسطينية بعمومها تهتم كثيراً بقيم التسامح والتعايش واحترام الآخر وتقبل الاختلاف في الرأي والدين، لدرجة

أنه يمكن القول إن هذه القيم كانت أكثر القيم بروزاً في هذه المناهج إضافة إلى قيمة المواطنة⁽⁴⁷⁾. وهذا يدل على سياسة واضحة تنتهجها هذه المناهج تقوم على تعزيز التسامح والتعايش بين أبناء الشعب الواحد، فأنت -على سبيل المثال لا الحصر- لا تجد في كتب التربية المدنية والوطنية صورة لمكان ديني مقدس عند المسلمين إلا ويجاورها صورة لمكان ديني مقدس عند المسيحيين، ولا تكاد تجد نصاً يتحدث عن المقدسات الإسلامية إلا ويرافقه الحديث عن المقدسات المسيحية.

4 - **الكنائس والمساجد تقف جنبا إلى جنباً؛** فالفلسطينيون المسيحيون والمسلمون يعيشون حياة مليئة بالحب والسلام، يسودها الاحترام دون تمييز للدين أو الفكر، في صورة حضارية ونموذج إيجابي يحتذى به في الوطن العربي والعالم أجمع، حيث يسمع صوت الأذان وترانيم قرع الأجراس، وترى مآذن المساجد تعانق أجراس الكنائس ليشكلا نموذجاً ودليلاً واقعياً على هذا التعايش الإيجابي الحضاري. وتبنى المساجد والكنائس دون تحديد أو مضايقة من أحد، وقد بنيت في السنوات الأخيرة في أرقى أحياء مدينة رام الله كنيسة كبيرة ومميزة للأقباط المسيحيين وبدعم سخّي من السلطة الفلسطينية، مع أن عدد الأقباط المسيحيين في المدينة لا يتجاوز بضع عشرات.

5 - **المدارس المسيحية في فلسطين مفتوحة للمسلمين:** وهي مدارس دينية غالباً ما تتبع لكنيسة أو طائفة، ولكنها كانت وما زالت وستبقى مفتوحة لكل المسلمين دون تفریق أو تمييز على أساس الدين، بل إن الإحصائيات تشير إلى أن أكثر من ثلثي طلبة هذه المدارس هم من أبناء المسلمين، وهي تضم معلمين من أبناء الديانتين، ويديرها أحياناً مجلس مكون من المسلمين والمسيحيين يقررون سياستها ومناهجها وآليات تطويرها وتقدمها. والطلبة فيها يدرسون الإسلام بكل حرية على أيدي أساتذة مسلمين، ولا يجبرون على دراسة تعاليم غير دينهم أو ممارسة طقوس تتناقض ومعتقداتهم.

6 - **فتح العديد من المؤسسات الدينية والاجتماعية ذات الطابع الحوارية** في مناطق السلطة الفلسطينية وتشجيعها على أداء مهامها في تعزيز الحوار

والتعايش. واليوم يوجد - والحمد لله - كثير من المؤسسات الإسلامية والمسيحية التي ترعى الحوار. والحوارات اليوم تقام في مؤسسات نذرت نفسها لتعميق الحوار والتعايش في الجامعات ومؤسسات المجتمع المدني، وفي مجلس الكنائس العالمي، ومجلس كنائس الشرق الأوسط الذي يضم جميع كنائس الشرق العربي، يتباحث المسيحيون بمحبة وود مع إخوانهم المسلمين في قضايا كثيرة تتعلق بالأمر الاجتماعي والقيمي الخلقية، وقليلاً في بعض القضايا اللاهوتية، إدراكاً منهم بأن القيم والمناقب مشتركة في الديانات السماوية كلها. وما يرجوه المسيحيون في الأراضي المقدسة هو ألا يقيم أحد إطلاقاً ترادفاً بين المسيحية في معناها الروحي الكنسي، وبين العالم الغربي بمعناه السياسي والحربي، فهما مختلفان ولا يجوز الربط بينهما.

وأخيراً هذا غيض من فيض عن التعايش الإسلامي المسيحي في فلسطين، وهو - في مجمله - يعطي صورة رائعة للتعايش والتوافق والانسجام فيما بينهما، فالمسيحيون الفلسطينيون جزء لا يتجزأ من النسيج الاجتماعي الثقافي والعرقي والسياسي لوطنهم فلسطين.

ومن المهم أيضاً التذكير بأن مساهمة الكنائس الفلسطينية بمدارسها وبمستشفياتها ومؤسساتها الخدمية الأخرى قد أثرت في حياة الآلاف من أبناء هذا الوطن دون تمييز في الدين.

لقد كان المسلمون مع إخوانهم المسيحيين عبر تاريخ طويل شركاء في صناعة هذه الحضارة، وعمل المسلمون والمسيحيون جنباً إلى جنب لتطوير هذه الأمة وحمايتها من العدوان الخارجي، ورسوموا معالم حياة مشتركة يجب أن نعتز بها، وكان في حضارتنا جهود مسيحية لا ينكرها إلا جاهل، فكان المناضل والمدافع عن الوطن، وكان هناك أيضاً العالم والفلكي والمهندس والطبيب والكيميائي والشاعر والأديب والكاتب والوزير.

ونحن إذ نؤكد العلاقات الإسلامية - المسيحية المميزة في فلسطين القائمة على الاحترام المتبادل والحرص على مصالح الوطن، فالمسلمون والمسيحيون شعب واحد ومصيرهم ذات المصير، وهمهم ذات الهم، فإننا نؤكد كذلك أهمية استمرار الحوار وضرورة التواصل

الإيجابي بين كل المجموعات البشرية (الدينية، والسياسية، والاجتماعية، والثقافية، والإثنية...) من أجل التوصل لأفضل العلاقات فيما بينها، وتكريس قيم العيش المشترك والتآخي بين كل الشعوب والأمم وصولاً إلى حياة أفضل.

خاتمة

إن الشرق العربي اليوم من أفضل دول العالم في العيش بين المسلمين والمسيحيين، وخاصة إذا نظرنا إلى العلاقات العائلية وعلاقات الصداقة والتعامل اليومي؛ فالعرب في الشرق يعيشون في مودة ينذر أن ترى مثلها في الدول الغربية؛ فتجد المسلم يجلس إلى جاره المسيحي وبالعكس في جلسة ودية كبيرة حول مائدة طعام أو كأس من القهوة أو الشاي، في البيوت وأماكن العمل والدراسة وفي الأسواق التجارية. وإذا ما بدأ الحديث في السياسة تجد لدى كل منهم اتفاق وانسجام تام في رفض الاحتلال وممارساته وضرورة الحفاظ على المقدسات الإسلامية والمسيحية؛ فكلاهما يعتبر فلسطين قضية وطنية وقضية قومية كما أنها قضية إنسانية.

والمستقبل اليوم هو أهم من الماضي؛ فالمسلمون والمسيحيون في الشرق الأوسط بل في العالم العربي قاطبة يتطلعون إلى نهضة عربية فاعلة، وإلى مواجهة ما يتهدد مصيرهم.

وقضية فلسطين والقدس في قلب كل مسيحي عربي، كما هي في قلب كل مسلم، وما يمارس من تهويد للقدس وتفريغ سكانها العرب يطول المسيحيين كما يطول المسلمين.

والقدس توحد المسيحيين والمسلمين؛ فمن القدس سطعت الحقيقة الربانية، وفيها تلاقحت الرسائل السماوية، ولهذا سميت بالمدينة المقدسة، وهي مدينة الروح، ومع ذلك فهي تتصل بالأمم الناس وأوجاعهم، واحتضنت في طرقها وحواراتها كثيراً من الآلام والأحزان، واليوم يحاول الإسرائيليون عزل المدينة عن سكانها المتعلقة قلوبهم بها، يحاولون عزلها عن الجسم الفلسطيني والعربي، الذي يتغذى روحياً وحضارياً من القدس؛ لذلك يتوجب علينا جميعاً أن نعمل على إبقاء هذه الشرايين الحية لتستمر حياة أهل هذه البلاد.

ما نتطلع إليه هو أن يكون المسلمون والمسيحيون أمة واحدة، وبذلك ندحض ما يحاول البعض الترويج له بأن مسيحيي الشرق لهم ثقافة أوروبية مختلفة عن الثقافة العربية الإسلامية؛ فكثير من المشكلات التي تعترض العيش المشترك يمكن أن تزول بسهولة إذا

اعتبرنا أن ثقافتنا مشتركة وأن آمالنا وطموحاتنا ومصائرنا واحدة. ونحن لا نريد من أي من المسيحي أو المسلم أن يترك دينه، أو يتنازل قيد شعرة فما فوقها عن مقتضيات عقيدته أو شريعته أو السلوك الواجب عليه بهما، ولكننا نريد أن يدرك الجميع أنه لا بقاء لأحدهما دون الآخر، وأن النار التي يشعلها أحدهما ستصيبه قبل أن تحرق الآخرين⁽⁴⁸⁾.

إن مشكلتنا في العالم العربي والإسلامي ليست مشكلة عنف وتعصب ديني، وليست مشكلة دين إسلامي رأى فيه البعض - تعسفاً - مصدراً للتعصب، فالمجتمعات التي ينهشها الفقر والتهميش والاستعمار والتآمر، لا يمكن أن تكون متسامحة بالقدر الذي يحلم به أصحاب المدينة الفاضلة. والحرب ضد التعصب يجب أن تكون في الواقع حرباً ضد أسباب التعصب ومنشئه: حرباً ضد الاحتلال والاستعباد والفقر والتهميش والظلم.

وفي ظل هذه الظروف الصعبة التي تلم بمنطقة الشرق الأوسط، بل المحاولات الأجنبية التي تحاول زرع الفتنة والخلاف بين المسلمين والمسيحيين لأبد من المحافظة على هذه الصور التي ذكرت آنفاً لتكون حاجزاً منيعاً أمام كل من يكره السلام والخير، بل وتكون دروساً لأجيالنا الصاعدة، وتكون المحبة والخير والسلام سائداً بينهم؛ لأننا وحدة واحدة مسلمين ومسيحيين، ولتكون هذه الصور نموذجاً للدول الغربية من أجل نشر السلام والمحبة في أرجاء العالم.

الهوامش

- (1) سميح غنادري: المهدي العربي (المسيحية المشرقية على مدى ألفي عام). دار 30 آذار للنشر: الناصرة (2009)، ص ص 24-25.
- (2) منصور الرفاعي عبيد: نظام الحكم في الإسلام، الدار الثقافية للنشر: القاهرة، (2001)، ص 153.
- (3) سميح غنادري: المهدي العربي (المسيحية المشرقية على مدى ألفي عام)، مرجع سابق، ص 25.
- (4) <http://www.dw-world.de/dw/article/0,,1834804,00.html>
- (5) <http://ar.wikipedia.org/wiki/>
- (6) سميح غنادري: المهدي العربي (المسيحية المشرقية على مدى ألفي عام)، مرجع سابق، ص 26.
- (7) المطران إلياس يوسف، المسيحية والإسلام معاً. محاضرة ألقاها على مدرج جامعة حلب عام 1999.
- (8) ابن تيمية، مسألة في الكنائس. تحقيق علي بن عبد العزيز الشبل، مكتبة العبيكان: الرياض (1995)، ص 118.
- (9) علي محمد حسين العوا: معاملة غير المسلمين في الإسلام. مؤسسة آل البيت: عمان (1989)، ص 589.

- (10) محمد عمارة (2005) الموقف من الديانات الأخرى. مكتبة الشروق الدولية: القاهرة، ص32.
- (11) يوحنا النيقوسى. تاريخ مصر. ترجمة ودراسة د. عمر صابر، القاهرة (2005) ص 201.
- (12) المطران إلياس يوسف، المسيحية والإسلام معاً. مرجع سابق.
- (13) جان موريس فييه. أحوال النصارى في خلافة بني العباس. دار المشرق: بيروت (1990)، ص 53.
- (14) ابن أبي أصيبعة. ص 246-247، R. LEVY, A Baghdad Chronicle, p.67.
- (15) أندراوس بشتة، وعادل تيودور خوري: عالم واحد للجميع. مركز الأبحاث في الحوار المسيحي الإسلامي، حريصا - لبنان، المكتبة البولسية: لبنان (2000) كتاب رقم 12، ص 45.
- (16) المطران إلياس يوسف، المسيحية والإسلام معاً. مرجع سابق.
- (17) بدران أبو العينين بدران. العلاقات الاجتماعية بين المسلمين وغير المسلمين. دار النهضة العربية: بيروت. (1984)، صص 327-336.
- (18) لول ديورانت. قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران ج13، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1964م. ص 131.
- (19) المطران إلياس يوسف، المسيحية والإسلام معاً. مرجع سابق.
- (20) عادل تيودور خوري: الإسلام في عقيدته وشرعيته، مركز الأبحاث في الحوار المسيحي - الإسلامي، حريصا - لبنان، المكتبة البولسية: لبنان (1997) كتاب رقم 6، ص 9.
- (21) أندراوس بشتة وعادل تيودور خوري: الإسلامية، مركز الأبحاث في الحوار المسيحي الإسلامي، حريصا - لبنان، المكتبة البولسية: لبنان (2002) كتاب رقم 16، ص 9.
- (22) سميح غنادري: المهدي العربي (المسيحية المشرقية على مدى ألفي عام)، مرجع سابق. ص 202.
- (23) يوسف القرضاوي: غير المسلمين في المجتمع الإسلامي. مكتبة وهبة: القاهرة (1984)، ص 10.
- (24) يوسف القرضاوي: الأقليات الدينية والحل الإسلامي. دار الفرقان: عمان. (1997)، ص 20.
- (25) المطران يوحنا إبراهيم: العلاقات المسيحية-الإسلامية عبر التاريخ: - حلب أمودجاً. مجلة تحولات، عدد 11، أيار 2006.
- (26) الدكتور محمود عكام في: المؤتمر الدولي «الإخاء الإسلامي المسيحي» وزارة الأوقاف، الجمهورية العربية السورية. 15/12/2010.
- (27) أندراوس بشتة، وعادل تيودور خوري: عالم واحد للجميع. مركز الأبحاث في الحوار المسيحي الإسلامي، حريصا - لبنان، المكتبة البولسية: لبنان (2000) كتاب رقم 12، ص 50.
- (28) انظر: سميح غنادري: المهدي العربي (المسيحية المشرقية على مدى ألفي عام)، مرجع سابق. ص 521-558.
- (29) كمال نواش وبيار مارون: http://www.ahl-alquran.com/arabic/printpage.php?main_id=18649&doc_type=0
- (30) المطران جورج خضر، رئيس أساقفة جبل لبنان للروم الأرثوذكس. أفكار وآراء في الحوار المسيحي الإسلامي والعيش المشترك 2، جزء 11، ص 72، المكتبة البولسية، جونيه - لبنان 2000.
- (31) د. محمد سليم العوا: العلاقات الإسلامية المسيحية في مصر/ <http://forum.amrkhaled.net/showthread.php>

- (32) المطران إلياس يوسف، المسيحية والإسلام معاً. مرجع سابق.
- (33) كمال نواش وبيار مارون: مرجع سابق.
- (34) محمد السماك: الاتحاد الكاثوليكي العالمي للصحافة. 2008.
- (35) <http://www.sabeel.org/pdfs/the20sabeelsurvey%20arabic.pdf>
- (36) الدكتور محمد السماك، رئيس لجنة الحوار الإسلامي المسيحي، في حوار مع إذاعة مونت كارلو الدولية. 2010 / 10 / 24
- (37) د. محمد السماك. من مقال بعنوان: أوضاع المسيحيين في الشرق، موقع كنيسة تيريزا بحلب. <http://www.terezia.org/section.php?id=1423>
- (38) المرجع السابق نفسه.
- (39) أقصد اليهود السامريين الذين يعيشون في مدينة نابلس منذ مئات السنين في تناغم وانسجام مع إخوانهم من المسلمين والمسيحيين.
- (40) وكالة الأنباء الفلسطينية وفا. http://www.radiosawa.com/arabic_news.aspx?id=8045908
- (41) <http://www.kudah.gov.ps/news1.asp?tbl=news%20where%20tec%20like%20%27dewan%27%20&id=1283>
- (42) حنا عيسى : التسامح الديني في فلسطين يقوم على سياسة وطنية ومبدأ قبول الآخر. مقال نشر في جريدة القدس بتاريخ 2010-01-29.
- (43) <http://ar.wikipedia.org/wik>
- (44) المرجع السابق نفسه.
- (45) راجع: جريس خوري، عرب مسيحيون، أصالة.. حضور.. افتتاح، مركز اللقاء، بيت لحم، 2006؛ جريس خوري، عرب مسيحيون ومسلمون، ماضياً.. حاضراً.. مستقبلاً، اللقاء، بيت لحم، 2006؛ فؤاد فرح، الحجارة الحية، المسيحيون العرب في الديار المقدسة، الحكيم للطباعة والنشر، طبعة ثانية، الناصرة، 2005؛ نعيم عتيق، سيدر دعيس، الحضور المسيحي في الأرض المقدسة، شهادة وفاء.. مسيرة ثبات، منشورات مركز السبيل، القدس 2008.
- (46) إياد البرغوثي: الدين والدولة في فلسطين. مركز رام الله لحقوق الإنسان: رام الله. (2007) ص 15.
- (47) بركات فوزي القصرأوي: القيم السائدة لدى طلبة المرحلة الأساسية في فلسطين. رسالة دكتوراه غير منشورة، فلسطين (2005).
- (48) د. محمد سليم العوا: العلاقات الإسلامية المسيحية في مصر، مرجع سابق.